حضارة الهند القديمة

الآثار القديمة في البنجاب والسند وقيمتها التاريخية

ملخص مقالين للسر ادرْكيث والسر جون مارشال

قبل ان نبدأ وصف المكتشفات الاثرية المدهشة التي اكتشفتها مصلحة المساحة الهندية باشراف مديرها السر جون مارشال، نودُّ ان نذكر ما كنا نعتقدهُ عن نشأة الحضارة في الهند. فقد كنا نعتقد ان سكان الهند الداوفيديين السمر فاروا الى نحو ١٢٠٠ سنة قبل ميلاد المسيح هجاً يعيشون على مثال سكان الادغال من المتوحشين . فاستيقظوا من سباتهم حينئذٍ بواسطة طوائف من سكان النجود والجبال هبطوا عليهم من مرتفعات افغانستان وما وراءها . وكان الفاتحون من السلالات البيضاء المعروفة بالشعوب الهندية الجرمانية او بالشعوب الناطقة باللغات الآرية . فنرض هؤلاء على سكان الهند شرائعهم وطرق معيشتهم وديانتهم ولغتهم . وهكذا اخذت الهند اولاً باسباب الحضارة على ما كنا نعتقد

قدم الحضارة الهندية

على ان المكتشفات التي اكتشفت في شمال الهند الغربي ، وبوجه خاص المكتشفات التي عثر عليها في وادي السند، قد قلبت آراءنا في بدء الحضارة الهندية رأساً على عقب. فعلى الضفة الغربية من نهر السند كشف السر جون مارشال عن طبقات متراكمة من الآثار ، مدفونة في الطمي الهابط من اعالي جبال ، تمثل كل طبقة منها مدينة عريقة في القدم ، يرتد تاريخ اقدمها الى الالف الرابعة قبل المسيح — والتقدير الرسمي لتاريخ هذه المدينة هو ٣٣٠٠ ق.م. وهو التاريخ الذي انشئت فيه الدولة المصرية الاولى

ومما يحملنا على الاستغراب ان نجد في الهند آثار مدن يرتدُّ تاريخها الى خمسة آلاف سنة ثم نعثر اذ نتبين من آثار هذه المدن الاساليب التي كانوا يجرون عليها وبوجه خاص اذ تتحقق انها لا تختلف كبير اختلاف عن اساليب الحياة في المدن في هذا العصر . فاننا لم نكن نتصور قط ، قبل مكتشفات موهنجودارو ، ان بيوتاً مبنية بالحجارة ، ومنظومة على جانبي شوارع مخططة عريضة واخرى ضيقة ، يمكن ان تبلغ في ذلك العصر الثاني ما بلغتهُ هذه المباني ، من الدقة والاحكام والنظامة . ومما لاريبة فيه ان الباحثين لم يعثروا في مصر ولا في العراق على ما يماثلها

قيمة الآثار المكتشفة

وقيمة اي اكتشاف من هذا القبيل يقاس بمقدار ما يمكن على آرائنا من التبديل. وهذه المكتشفات في شمال الهند الغربي ، كما قلنا ، تحملنا نحن الباحثين عن نشأة الحضارة ، على تبديل موقفنا نحو ماضي الانسان المتغلغل في القدم . فلما كنا معنيين بتتبع تاريخ الانسان الى الالف الرابعة قبل المسيح . كما نعنى ، الى ان تمّ هذا الاكتشاف ، بموقعين فقط هما مصر والعراق

وهذه المكتشفات على ضفاف الهند تضيف مرة واحدة ، الى سنة الى تاريخ الهند . وهذا في حد ذاته امر ثانوي . ولكن الامر الخطير ، هو النور الذي تشعهُ هذه المكتشفات في نواحي البحث عن الحضارة الانسانية من خمسة آلاف سنة . فانها لم تكن محصورة ، كما كنا نعتقد الى عهد قريب ، في بقعتين من بقاع العالم القديم ، بل كانت تمتدُّ من الهند الى مصر ، فوق شقة من سطح الارض عرضها لا يقلّ عن ١٨٠٠ ميل وامتدادها من الشمال الى الجنوب ، قد لا يقلّ عن ذلك كثيراً . فالحضارة الانسانية — حضارة المدن — اقدم جداً مما كنا نظنّ . فاذا كانت الحضارة الانسانية قد بلغت هذا الشأو ، وهذا الامتداد في القرن الرابع ، فالبحث عن نشأتها وأصولها يجب ان يمتدّ بنا الى الالف السادسة قبل المسيح او الى ما هو قبلها . حينئذ كان الانسان — على ما نرجح الآن — قد بدأ يخطو الخطوات الاولى نحو الحياة المدنية . ومما لا يداخله الريب ، ان الباحث الاثري لن يلقى معونة ورفقة قبل ان يبلغ بهما الى ما يمكنهُ من فهم نشأة الحضارة وأصولها

حلقة بين حضارتين

وفي الوقت نفسهِ اكتشف السر جون مارشال ومساعدهُ السر اورل ستين Aurel Stein في النجود الواقعة بين الهند والعراق (نجود بلوخستان وفارس) سلسلة من الآثار تصل بين حضارة بابل وحضارة السند . وهذا يحقق بعض ما كان يذهب اليهِ نفر من الانثربولوجيين (السر ارثر كيث احدهم) من ان رواد الحضارة البشرية كانوا يقطنون النجد الواقع بين الفرات والسند

ولكي ندرك قيمة اكتشاف هذه الآثار المبعثرة بين الهند والعراق لا بد من الرجوع الى خريطة فارس وبلوخستان وافغانستان . فهذه البلدان الجبلية تقوم كحاجز ، بين دال العراق التي بناها نهرا الفرات ودجلة وبين دال السند التي رسبها نهر السند العظيم والمسافة بينهما طولها نحو ١٤٠٠ ميل . فبلوخستان بوجهٍ عام ، وكذلك معظم افغانستان وفارس بلدان صخرية جافة الآن . ولكن ثمة من الادلة ما يؤيد القول بأن هذه البلدان كانت غزيرة الامطار ،

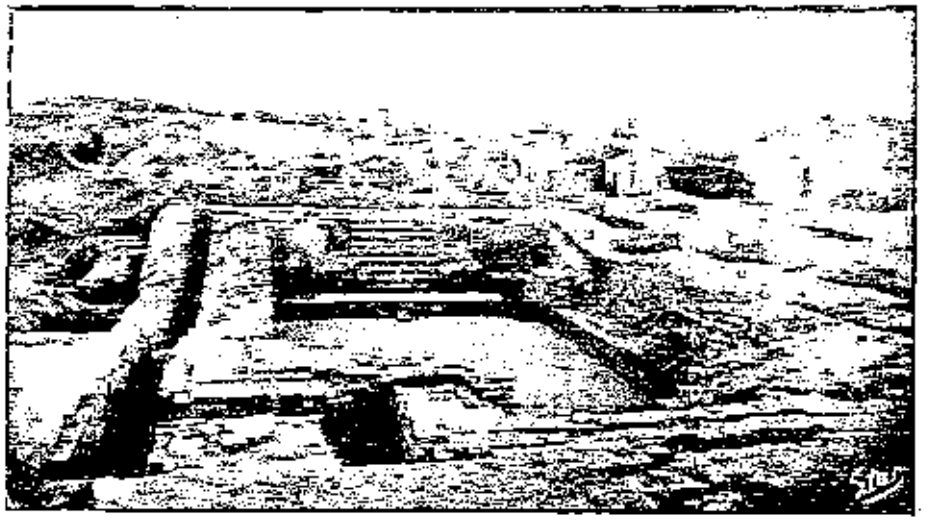

آثار الحمام الكبير التي عثر عليها

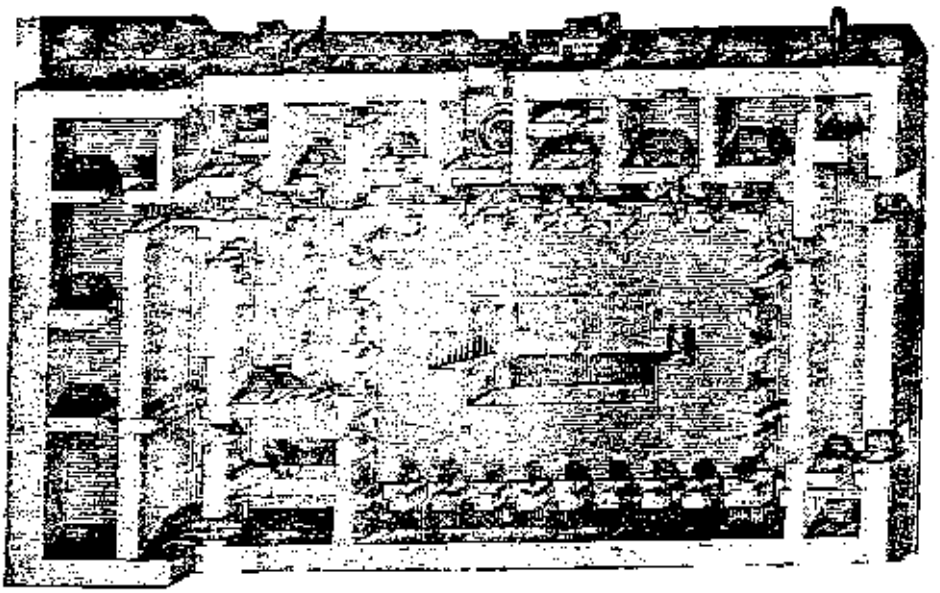

رسم للحمام الكبير يشاهد في وسطه حوض لاستحمام يدل انه بسم وحوله ماء واسع تحيط به عرف كثيرة والظاهر انه كان يستعمل لاغراض دينية

غرفة في دار كهاكات من ٥٠٠٠ سنة

مقتطف فبراير ١٩٣٢

داخل احد البيوت في موهنجو دارو

الايام صفحة ٢١٥

وظلت كذلك الى مطلع الالف الرابعة قبل المسيح ، إذ أخذ متوسط هطول المطر يقلّ وبدأ عهد الجفاف الذي نشهده الآن

ميلاد الزراعة

فاذا فرضنا — والبواعث متوافرة لهذا الفرض — ان الشعوب التي كانت تقطن في هذه البلدان كانوا روّاد الزراعة ، فذلك يعلل لنا ، هجرتهم نحو سهل الرافدين المعرع . ومما لا يستطاع تصديقهُ ، ان الاساليب التي كان الناس يجرون عليها في العراق ومصر ، تمثل اول محاولات الانسان الزراعية . والمكتشفات الحديثة في اور الكلدانيين تثبت ان طوائف من الزراع والتجار ، كانوا قد انشأوا مستعمراتهم في سهول العراق في بداءة الالف الرابعة قبل المسيح

اما مكتشفات السر جون مارشال في السند ، فتبين الآن ، انما كان حادثاً في دلتا الرافدين في مطلع الالف الرابعة ق. م. كان حادثاً كذلك ، في بلدان دلتا السند على الجانب الشرقي من النجد الفاصل بين المكانين . ولا نزال في حاجة الى كثير من البحث والتدقيق لنعرف هل الاتصال بين الغرب (العراق) والشرق (السند) تمّ عن طريق البرّ او عن طريق البحر

* * *

قلما يوفق الباحثون الأثريون الى اماطة اللثام عن حضارة كاملة مدفونة في التراب كما وُفّق شيلمان الالماني في بلاد اليونان وافانس الانكليزي في جزيرة كريت ولكن في شتاء سنتي ١٩٢٢—١٩٢٣ اتفق ان احد موظفي مصلحة المساحة الأثرية الهندية—واسمه بانرجي— كان مارًّا في الناحية التي وجدت الآثار فيها فعزم ان يبحث في تاريخ صومعة هناك ليعين تاريخها . فعثر على نقود مكنتهُ من تحقيق مايبغي ، اذ ثبت له ان بعض الملوك البوذيين كانوا يقطنونها في القرن الثاني بعد الميلاد

فلما مضى في البحث عن أسس الصومعة دهش ، اذ عثر على بناء متين يطوب شبيه بطوب الجدران في الصومعة . ثم تبين له ان هذه المباني المدفونة قديمة جداً ، ذلك انهُ عثر هو ورجاله على اشياء عرف بانرجي في الحال انها اختام لم توجد قبلاً إلاّ في مدن العراق . وكان السر جون مارشال قد عثر على مثل هذه الاختام في مكان يدعى هاربا في السنة السابقة . وهو على نحو ٤٠٠ ميل من موهنجو دارو . فاقتنع ان بقايا حضارة قديمة مطمورة في الشمال الغربي من الهند . وهكذا بدأ البحث المنظم في هذين الموقعين ، فأسفر عن كشف اصول الحضارة الهندية القديمة

آثار موهنجودارو وهارپا

﴿ الحمام الكبير ﴾ وقد جرى النقب في موضعين اوفرها يدعى هارپا في الجناب والثاني موهنجودارو في السند والمسافة بينهما نحو اربعمائة ميل فعثروا على آثار مبنى في طبقات متراكبة بعضها فوق بعض يظهر منها ان تلك البلاد كانت آهلة عامرة منذ أكثر من ٤٧٠٠ سنة . ومكان البحث في موهنجودارو يشغل ارضاً مساحتها اكثر من ثلاثة عشر فداناً وجدت فيها آثار ثلاث من أحدث المدن التي بنيت هناك في ثلاث طبقات متراكمة . ومن اغرب المباني التي كشفوها بناية ضخمة تحتوي على حوض كبير كان يستعمل حمّاماً جرياً على بعض الطقوس الدينية أو لحفظ بعض التماسيح أو الاسماك المقدسة . وطول هذا الحوض ٣٩ قدماً وعرضهُ ٢٣ قدماً وعمقهُ تحت مستوى ارض البناية ثماني اقدام . وعلى كل من جانبي الحوض سلّم للنزول بهِ الى الماء . وارضهُ وجدرانهُ مرصوفة ببلاط دقيق الصنع وعلى جانب كبير من الاتقان . وقد بنيت الجدران بالطوب ولصقت بطين جيري وطلي الجدار الداخلي من خارجهِ بالقطران منعاً لتسرب الماء . ويتصل بهذا الحوض مصرف كبير مسقوف بقنطرة ارتفاعهُ ست اقدام يُصرَفُ بهِ ماء الحوض الى خارج المدينة . وعلى مقربة من هذا الحمام الفخم حمام آخر شبيه بهِ ولكنهُ لم يحفظ سليماً من الاذى

وقد عثروا ايضاً على آثار مبانٍ صغيرة للسكن ومخازن للبيع مما يدلّ على ان ما بلغهُ الفرد في تلك العصر من الحرية والتقدم يفوق ما بلغهُ من هذا القبيل على ضفاف دجلة والفرات والنيل ومع ان المستر ولي كشف مؤخراً في اور الكلدانيين مبانيَ من هذا القبيل الاّ انها لا تقارن بالمباني التي كشفت في موهنجودارو من حيث الاتقان وينقصها نظام المعارف الذي بهِ كانت تجمع المياه القذرة من الحمامات المختلفة في احواض كبيرة في الشوارع ثم تنقل الى خارج البلدة

ولما كان هناك شبه كبير بين آثار هذه الحضارة وآثار الحضارة السومرية (الشمرية) القديمة فقد كنا اطلقنا على الحضارة التي كشفت آثارها في موهنجودارو وهارپا اسم الحضارة الهندية — السومرية . ولكن بعدما توغلنا في البحث ثبت لنا ان سبب هذا التشابه ليس وحدة الحضارتين بل التبادل التجاري بين البلدين . فعدلنا الى « حضارة السند »

﴿ تاريخها ﴾ كشفت لختام هندية في سوسا ببلاد فارس تشير الى هذه الحضارة ومن الموقع الذي وجدت فيهِ يستدلّ على انها تعود الى قبل عهد سارغن الاول أي قبل سنة ٢٧٠٠ ق.م. وقد وجد حديثاً ختم في اور عليهِ ما على بعض هذه الاختام ولكنهُ منقوش بالخط المساري الذي يعود الى العهد المذكور . وعليهِ نستطيع ان نستنتج ان هذا النوع من الاختام خاص

بالنصف الاول من الالف الثالثة قبل المسيح أو قبل ذلك . ولما كانت هذه الاختام مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالمدن التي كشفت في موهنجودارو لكثرة ما كشف منها فيحق لنا ان نجعل تاريخ هذه المدن يتراوح بين سنة ٣٥٠٠ و ٢٥٠٠ ق . م ولا يعلم على وجه من الدقة او من الذي انقضى على قيام هذه المدن وسقوطها ولكننا نرجح اننا لا نكون بعيدين عن محجة الصواب اذا جعلنا تاريخ المدينة العليا ٢٧٠٠ ق . م . وتاريخ التي تحتها ٣٠٠٠ ق . م . وتاريخ الثالثة التي تحتهما سنة ٣٣٠٠ ق . م . اما مدن هارپا فالعليا منها معاصرة لهذه المدن واما المدن التي تحتها فاسبق عهداً ولكننا لا نستطيع تعيين تاريخ هذا العهد

﴿ اجناس السكان ﴾ وما هو جنس هؤلاء الناس الذين خلقوا حضارة السند ؟

لا نستطيع الاجابة عن هذا السؤال اجابة صحيحة لان مباحثنا لم تتقدم تقدماً يكفي لذلك . وقد وجدنا كما كنا ننتظر ان اكثر الهياكل العظيمة التي عثرنا عليها تدل على ان اصحابها من شعب مصنع الرأس (Dolechocephalic) [1] أي يصح ان تنسبهم الى الاجناس المستطيلة الرؤوس التي كانت تقطن جنوب اسيا واوربا والتي يطلق عليها اسم شعوب البحر الابيض المتوسط . ولم نعثر الا على جمجمة واحدة من نوع الجماجم المدورة [2] (Brachycephalic) واما التماثيل التي عثرنا عليها فتمثل اناساً رؤوسهم مدورة مثلها . ولكن ما لدينا من المعلومات حتى الآن لا يكفي للوصول الى نتائج مقررة في هذا الموضوع

﴿ النسيج والملبس ﴾ ان وجود مغازل كثيرة وقطع من القطن المنسوج نسجاً دقيقاً في اطلال المدن التي كشف عنها يدل دلالة قاطعة على ان سكانها كانوا يغزلون وينسجون ولا يخفى ان اسم القطن في اللغة البابلية « سندهو » وباللغة اليونانية « سندن » وكلا اللفظين يشيران الى وادي نهر السند كموطن القطن الاصلي . ولكن بعض الباحثين كانوا مرتابين في ذلك وقال بعضهم ان القطن الذي استعمله البابليون واليونان جنوه من اشجار قطن غير شجيراته المعروفة الآن . فجاءت مكتشفاتنا بالقول الفصل وقطعت جهيزة قول كل خطيب . لان القطن الذي وجد في موهنجودارو من النوع الثاني وله كل ميزاته

وكان لباس الرجال منهم يشتمل على قطعتين من الثياب رداء يربط حول الوسط وشال طاطل او مزخرف يرفع الى الكتف الايسر ماراً من تحت الابط الايمن فتحفظ الذراع اليمنى مطلقة . وكان الرجل يطلق ذقنه وعارضيه احياناً واما شعر الشاربين فكان يحلقه احياناً ويحفظه اخرى . وكان شعر الرأس يجمع ويعقص في مؤخر الرأس . وقد عثرنا على رأس تمثال لامرأة مثل فيها شعرها مسترسلا على كتفيها وظهرها . ولا نعلم من ذلك هل كان هذا

---

(١) ترجمة العلامة فير الخاوري . انظر مقتطف النسطى ١٩٢٦ ص ١٧٤ (٢) ترجمته ايضاً

الزي فانياً حينئذٍ . وكان الرجال من طبقات الدنيا يدهنون عراة والنساء تحسن ما يستر عوراتهن فقط مع اننا عثرنا على تمثال فتاة راقصة عارية كل العري . وكان كل الناس على اختلاف طبقاتهم رجالاً ونساء يتحلون بالحلى المختلفة — عقود وخواتم وزنانير . وانفردت النساء بلبس الخلاخل

﴿ حيواناتهم الداجنة والبرية ﴾ وكان من حيواناتهم الداجنة الثور والجاموس والضأن والخنزير والكلب والحصان والفيل ولم نعثر على اثر ما للجمل ولا للبغل . اما الحيوانات البرية فمنها النمر والفيل ووحيد القرن . ولم نعثر على اثر ما يشير الى وجود الاسد

﴿ زراعتهم ﴾ لم يكن في الامكان ان تنهض مدن كبيرة زاهرة كمدينتي موهنجودارو وهارپا في ذلك العصر الا في بلاد زراعية اتقن اهلها الزراعة الى حدٍّ بعيد . ومع ان ما كشف حتى الآن عن اساليب الزراعة والري المستعملة حينئذٍ لا يزال ضئيلاً جداً فلا بدَّ من الاشارة الى ان انواع الحنطة التي وجدت في موهنجودارو هي هي انواع الحنطة التي في بلاد البنجاب الآن . وقد ثبت لنا من اختبارات مختلفة ان مقدار ما كان يهطل من المطر سنوياً في السند وغرب البنجاب كان اعظم مما هو الآن . وان السند كانت تروى حينئذٍ من نهرين لا من نهر واحد وانها كانت كذلك اخصب مما هي الآن واقل عرضة لآثار الفيضانات وما تتركه في اثرها من الخراب

﴿ طعامهم ﴾ وكان سكان هاتين المدينتين يشربون اللبن ويأكلون الخبز ولحم الضأن والبقر والخنازير والسلاحف وسمك نهر السند الطازج والسمك المقدد مجلوباً من شواطىء البحر . والادلة على ذلك وجود أنواع مختلفة من العظام في بيوت مختلفة ساعدتنا في تحقيق الحيوانات الخاصة بها الماجور سوِل مدير قسم الحيوانات في حكومة الهند ومعاونوه

﴿ الحلي ﴾ كانت الحلي التي يتحلى بها الاغنياء من الذهب والفضة أو النحاس المطلي بالذهب والتيشاني الازرق والعاج والعقيق واليشم وحجارة ملونة مختلفة . أما الفقراء فكانوا يستعملون الصدف والتراكوتا . وقد عثرنا على أمثلة كثيرة مختلفة من هذه الحلي وتلك أخص بالذكر منها عقداً من العقيق والنحاس المطلي بالذهب ومنها اقراط وبرٌ من الذهب الخالص مصقولة صقلاً يتعذر به امهر الصاغة في هذا الزمان

﴿ المعادن ﴾ ومن المعادن التي كانوا يستعملونها عدا الذهب والفضة والنحاس القصدير والرصاص فقد كانوا يستعملون النحاس بكثرة في صنع اسلحتهم وادواتهم البيتية فيصنعون منهُ الخناجر والسكاكين والفؤوس والمناجل والازاميل والآنية وادوات اثرية على اختلافها كالاساور وما اليها . وكانوا يأتون بهِ من بلوخستان غرباً وراجپوتانا شرقاً وافغانستان شمالاً .

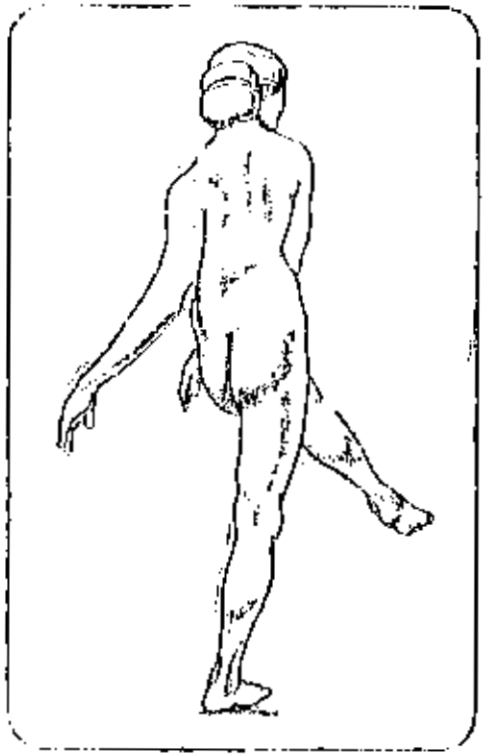

ثلاثة مشاهد لتمثال شخص راقص وجد في هاربتا. احدها كما يرى من الوراء والثاني من الجانب الايسر
والثالث (الاوسط) رسم للتمثال نفسه

مقتطف فبراير ١٩٣٢ امام صفحة ٢١٧

أما القصدير فكان يصعب الحصول عليه والمرجح انهم كانوا يستوردونهُ من خراسان او من الغرب من طريق سومر في ما بين النهرين

ولم يستعملوا القصدير صرفاً بل مزجوهُ بالنحاس وصنعوا منهُ البرونز واستعملوهُ في صنع ادوات القطع الحادة كالازاميل والمناشير وفي صنع التماثيل الصغيرة والازرار والخرز الدقيقة وغيرها من الحلي ورغماً عن تفوق البرونز على النحاس الصرف من حيث ملاءمتهِ لصنع الادوات المذكورة فان ما صنع منهُ قليل جداً لصعوبة تناولهِ وغلاء ثمن القصدير

﴿الاسلحة والسكاكين﴾ ومن الغريب اننا لم نعثر حتى الآن إلاَّ على بضع فؤوس وخناجر ورؤوس سهام ورماح . فيظهر ان سكان هذه المدن لم يكونوا رجال حرب . ومع انهم أكثروا من استعمال النحاس في صنع ادواتهم عثرنا على كثير من الادوات الحجرية مما يدل على ان آثار العصر الحجري الحديث كانت لا تزال فاشية بينهم . فقد كانوا يصنعون من حجر صلد من نوع اليشب ادوات للعقل واوزاناً لها نظام هندي خاص يختلف عن نظام البابليين والاسلاميين . وكانوا يجلبون كثيراً من الصدف من شواطىء البحر لتقطع وتنظم في عقود وتصنع منها حلي مختلفة وتستعمل في صناعة تنزيل الخشب . ولهم قيشاني ازرق عائل قيشاني ما بين النهرين ومصر استعملوهُ كثيراً في صنع الحلي والكؤوس الصغيرة والعقود وما اليها

﴿الخزف﴾ اما ادوات البيت العادية فمن خزف عادي . واشكالها مختلفة ودقيقة الصنع مما يدل على ان صناعة الخزف كانت قديمة جداً وانهُ كان قد انقضى عليهم زمن يمارسونها حتى اتقنوها . ولكن من الغريب ان اكثر الآنية الخزفية لم يكن لها حلقات تستعمل كقابض واكثرها احمر اللون غير مزخرف وبينها ما هو مزخرف ومدهون بالوان مختلفة ولكنهُ قليل وأكثر الرسوم سوداء وهي رسوم هندسية وبعضها رسوم حيوانات . وقد عثرنا على آنية في موهنجودارو مزخرفة برسوم حمراء وبيضاء وسوداء . وبعض هذه الرسوم يدل على اتصالهم بعيلام وما بين النهرين وبلوخستان

﴿الكتابة﴾ ان وجود الاختام المنقوشة في كل بناية كشفناها تقريباً يدل على ان سكانها كانوا عارفين بفن الكتابة ويرجح لدينا انهم كانوا يستعملونها في التجارة وغيرها مع اننا لا ندري حتى الآن ما هي المواد التي كانوا يستعملونها مكان الصلصال الذي كانت تصنع منهُ الاختام . وربما استعملوا لذلك الخشب او لحاء بعض الاشجار مما ينبه البردي المصري

والراجح ان هذه المدن طمرت تحت طبقات من الطمي كانت مياه السند تحملهُ في ابان فيضانهِ بعد ذوبان الثلوج على جبال حلايا في اول الصيف . وهكذا ارتفع سطح السهل الذي بنيت فيهِ المدينة ارتفاعاً مطرداً يرجح ان متوسطهُ نحو ٩ بوصات في القرن الواحد . فمدينة موهنجو دارو مطمورة تحت ثلاثين قدماً من هذا الطمي الراسب